

المظاهر المعرفية والأدبية للمرأة الأندلسية المثقفة
cognitive and literary aspects of the educated
Andalusian woman

مريم قادري*

نورية بن عدي*

تاريخ النشر: 2022/11/10	تاريخ القبول: 2022/04/12	تاريخ الإرسال: 2022/01/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تحمل المرأة في نوازعها الكثير لتمنحه لمجتمعها، وتتسع آثارها في الحياة على مستوى الواقع الاجتماعي والثقافي، وتتوقّد لديها الأدوار الإيجابية، فتشعّ على من حولها عملاً جليلاً وأدباً جميلاً وعلماً غزيراً، وهي الفنانة التي تزين بريشتها الإبداعية الأدبية التراث الأندلسي. ونظراً لهذه الأهمية انبرى فكرنا صوب موضوع "المظاهر المعرفية والأدبية للمرأة الأندلسية المثقفة" محوراً يناقشه هذا البحث، وليساختيار المرأة الأندلسية عبثاً، فهي التي كانت تعقد المجالس في صالونها، يؤمّها الأدباء والمفكرون من كلّ مكان، غير أن حياتها لم تخل من العثرات، لكتّها تركت إرثاً أدبياً اعتمده الباحثون في تحليل شخصيتها وإبراز قيمتها، فمادور المرأة الأندلسية على الصعيدين المعرفي والأدبي؟ الكلمات المفتاحية: العصر الأندلسي، المرأة الأندلسية، المظهر المعرفي، المظهر الأدبي، الأثر الثقافي.

Abstract:

The woman has so many things to offer to society, her impact is observed at many levels specially in the cultural and social life, where she played positive roles, by enlightening her entourage with an enchanting literature. she was the artist who enriched the Andalusian Heritage with her creative literary pen.

*المركز الجامعي بمغنية، kadri.meriem91@gmail.com

*المركز الجامعي بمغنية، brkmhd@yahoo.fr

Because of this important role, we found that it would be useful to treat in our scientific research the subject of "cognitive and literary aspects of the educated Andalusian woman"

Our choice did not fall by chance on the Andalusian woman, since she was the one who organized Women's literary salons where great thinkers and poets attended coming from all corners of the world. And even if the life of the educated woman at that time was not without constraints, she was able to leave a true literary legacy on which modern scholars can rely to paint her portrait and update her value

So what was the role played by Andalusian woman on both literary and cognitive levels?

Key words: *Andalusian era, Andalusian Woman ,cognitive aspects, literary aspects ,cultural impact.*

** *** **

المؤلف المرسل: مريم قادري، kadri.meriem91@gmail.com

1. مقدمة:

يعدّ موضوع المرأة من الموضوعات المهمة التي شغلت فكر الأمم قديما وحديثا، ولا غرابة في ذلك فهي الركيزة الثانية التي تقوم عليها حياة البشر، حيث خلق الله عزّ وجلّ الإنسان وكرّمه حين نفخ من روحه في أصل البشرية آدم عليه السلام وازداد هذا التكريم لما خلق له زوجه أمّنا حواء مثلما يقول تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"¹.

إنّ المرأة رمز الحنان والعطاء، وعالمها يضيح بالسّحر والجمال، وقد عرفت بمواقفها عبر العصور، فعرّفناها: أمّا، زوجة، محاربة، كاتبة، وفقية، وقد سمت مكانتها في العصر الإسلامي، والعصر الأموي والعباسي وتطورت عمّا كانت عليه، فهي التي منحها الله تعالى نعماً كثيرة لأنها رمزاً لديمومة الحياة.

2. مكانة المرأة الأندلسية:

مرّت المرأة بظروف تختلف من عصر إلى آخر وتناوبت مكانتها حسب المجتمع الذي عاشت فيه، ولا يفوتنا الحديث عن المرأة في الأندلس دون أن ننوّه كونها نتاج الاختلاط بين الشرق والغرب، بين الإسلام والنصرانية واليهودية، بين العرب الذين دخلوا الأندلس مع جيش موسى بن نصير، والبربر الذين جاؤوا مع طارق بن زياد، والمولدين من تزواج العرب بالبربريات، والاسبانيات، فهذه الشرائح والأعراق المختلفة، وهذا الامتزاج هو الذي تولّد عنه الأندلسيون والأندلسيات، وشكّلوا مجتمعا واحدا يخضع للأعراف والتقسيمات الاجتماعية التي عرفها المجتمع البشري في كلّ مكان.

إنّ المزيج المشرقي والعربي، الأوروبي والبربري، المسيحي والإسلامي، هو الذي صنع خليطا أفرز تنوّعا في المشارب والنتائج الفكرية والأدبي بحكم المصاهرة أو المجاورة أو التحالف، وأفضى إلى تميّز النسيج الاجتماعي الأندلسي عن غيره في العرق، وفي الدين وفي الأهداف والغايات المنشودة، لكنّ "الثقافة العربية الأصيلة لعبت دورا هاما في تماسك وارتباط المجتمع الأندلسي"²، فأنتج المرأة الأندلسية بنتاجها الثقافي الشبيه بحالة التفاعل الذي كان قائما في تلك الحضارات المتنوعة، أمّا "احتكاك المرأة بالشعوب الأوروبية أثّرت في ذلك المجتمع العربي الناشئ ببعض خصائصها"³، فكانت انطلاقة المرأة في المجتمع الأندلسي أوسع ممّا كانت عليه في البلدان العربية والإسلامية الأخرى.

كانت مكانة المرأة في مجتمعاتهم تختلف عن مكانتها في المجتمع العربي، حيث "اتخذ الحاميون الأم رأس الأسرة فكان أفراد الأسرة ينسبون إليها وليس إلى الأب مثل هذا النظام بقيت آثاره في تلك الشعوب الحامية، فوضعوا المرأة في المكان الأول في المجتمع"⁴، فاهتمّت الأسرة الأندلسية بالبنات منذ ولادتها ولم تفرّق بينها وبين الولد، وسهرت على التنشئة الحسنة ومكارم الأخلاق فكان "يطلق عليها اسم إحدى شهيرات الإسلام مع كنية تنادى بها مثل: أم كلثوم، أم الحكم، أم عاصم"⁵.

لقد تعرض المستشرقون في دراساتهم إلى وضع المرأة في المجتمع الأندلسي وأقروا بأنّها كانت متحرّرة وبرزت في مختلف النشاطات على غرار المرأة في الإمبراطورية الإسلامية، ومن هؤلاء المستشرقين نذكر البارون فوك شاك في كتابه شعر العرب وفهم في اسبانيا

وصقلية حيث قال: " أن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر تحرراً عما كان عليه في بقية الشعوب الإسلامية الأخرى، فأسهمت بجهدا في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها، وليس بقليل عدد أولئك اللاتي بلغن شهرة واسعة لدورهنّ في مجال العلم أو مزاحمتنّ الرجال في قرص الشعر، وفي ظلّ هذه الحضارة الراقية بلغن في اسبانيا احتراماً لم تعرفه المرأة أبداً في المشرق الإسلامي"⁶.

لقد فرضت المرأة الأندلسية وجودها مثلها مثل الرجل، وتمتعت بمكانتها الرفيعة في ظلّ الحكم الإسلامي وحظيت بتمييزها عن أختها في المشرق: "ووجدنا المرأة الأندلسية تحظى بمكانة مرموقة نتيجة الاستقرار السياسي الذي أمّنه الخلفاء الأمويون، فقد استحضر العديد منهم الكثير من الجوّاري الروميات والصقليات وبذلوا لهن أفضل ما يتمنّين من الآمال والعيش الرغيد"⁷، وعُيّنَت حتى كاتبات أو سكريتيات للأمرء والخلفاء ونذكر: مزنة كاتبة عبد الرحمن الناصر وغيرها، كما أصبحت المرأة إلى جانب الرجل متساوية معه في الحقوق والواجبات، وأضحّت في تفاعل مع الأفراد رجالاً كانوا أو نساء والدليل أننا: "رأينا النساء في صدر الإسلام مصلحات وناشرات للدعوة المحمدية، وراويات للحديث وحافظات للقرآن وقد امتلكن القدرة على القول الحكيم والمأثور ممّا خوّلهنّ المشاركة في السياسة الإسلامية وشؤون الخلافة"⁸، كونها ذكية وحكيمة، وأمّا من ناحية الزواج فالمرأة جارية كانت أم حرة هي صاحبة الأمر في قبولها أو رفضها ولا أحد يجبرها على زواج من تكره، ويقول هنري بيرس: "إنّ المرأة الأندلسية، كانت تتمتع بوضعية أكثر ليبرالية من وضعية أخواتها في المشرق"⁹، لكن هنا نشير أنّ ظاهرة التحرّر لا تنطبق على جميع النساء، فالمرأة الأندلسية الحرّة لم تكن في عصر الولاة وبداية عصر الدولة الأموية، تخالط الرجال ولا تشترك معهم في الاجتماعات العامة وكانت هناك رقابة على الحرائر المحافظات والمتحجّبات حفاظاً على بناء العائلة الإسلامية، على عكس الجوّاري والمغنيات لإحياء مجالس السالهو والطرب.

3. المظهر الخارجي للمرأة الأندلسية:

لعلّ أفضل مصدر يصف لنا المرأة في الأندلس ما وجدناه في الإحاطة من وصف لسان الدين الخطيب للنساء الغرناطيات، وهو وصف ينطبق على معظم نساء بلاد

الأندلس، يقول ابن الخطيب: "وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاور، إلا أن الطول يندر فيهنّ، وقد بلغن من التفنّن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجات، والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغضّ عنهنّ فيها"¹⁰، ويقول أيضا في حديثه عنهنّ: "بالجمال والرشاقة ونبل الخلال، ولكنّه ينعي عليهنّ الإسراف في الأصباغ والعطور والتفنّن في الزينة والتزيّن بنفيس الحلي"¹¹، وانعكست هذه الأفكار على عقلية الرجال، فكانوا يتصوّرون المرأة ضعيفة يسهل إغواءها " فهم يدعون إلى معاملتهنّ بحيطه وحذر، وأن يُحفظن في بيوتهنّ، ولا يُسمح لهنّ بالخروج منها إلا في المناسبات"¹².

وهناك بعض الأخبار والروايات التي يمكن أن تستشف منها منزلة المرأة وقيمتها الاجتماعية في الأندلس، "فالقصائد المدمجة بمدحهنّ أو رثائهنّ تشير بلا شك إلى ما يكنّه الرجل تجاههنّ من احترام وإعلاء لمكانتهنّ"¹³، فنتعرّف على مظهر الأندلسيات من وصف الشعراء لهنّ بشكل عام، ومن وصف ابن زيدون لولادة بنت المستكفي بشكل خاص، فيقول ابن زيدون في نونيته المشهورة:¹⁴

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
أَوْصَاغَهُ وَرِقاً مَخْضاً وَتَوَجَّهَ مِنْ نَاصِعِ التَّيْرِ إِبْدَاعاً وَتَحْسِينِ
إِذَا تَأَوَّدَ أَدْنَاهُ رَفَاهِيَةً ثُوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَّتُهُ الْبُرَى لِينَا
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْراً فِي أَكْلَتِهِ بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَابِينَا
كَأَنَّمَا أُتْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيداً وَتَزِينَا

فهذه الأبيات تبين لنا صفات المرأة الأوروبية في بياض بشرتها، وشقرة الشعر، وتلون العيون.

4. الجارية والحرّة:

1.4 صورتها ودورها في الحياة الاجتماعية:

ألمحنا إلى المكانة الرفيعة والعالية التي احتلتها المرأة في المجتمع الأندلسي، حيث "تمتعت بكامل حريتها في ظلّ البيئة الجديدة ولم ترتبط تقاليدها بأعماق وأثقال كتلك التي ارتبطت بها بيئة المشرق"¹⁵، وأفرزت الحياة الأندلسية تفاوتاً واضحاً في المستوى "فكانت النساء الأندلسيات يتمايزن بحسب الأصول العرقية لهنّ والدين والطبقة الاقتصادية والمستوى السياسي-الاقتصادي"¹⁶، فالقاعدة الاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع تؤثر في نشاطها، والعلاقة بين المرأة والرجل لم تتخذ الشكل نفسه في جميع طبقات المجتمع الأندلسي، وقد أثر هذا التباين على مركزها، حيث إنّ حالها يختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها: نساء الخاصة (الطبقة الأرستقراطية) يختلفن عن نساء العامة (الطبقات الشعبية)، وهؤلاء أيضاً نوعان: إمّا حرائر وإمّا جوارٍ.

إنّ الوسط الأرستقراطي لم يهمل تعليم النساء، وأصبحت تنافس الرجل في العديد من المجالات، وتلتقي به في ساحات الدرس، وتقف معه على قدم المساواة، حتى تفوقه أحياناً، وتخرج لزيارة المساجد والأسواق برفقة جوارٍها، والتنزه في الرياض، وقد يكتنّ من بنات الأثرياء ممّن يستطعن اقتناء الكتب وإنشاء مكتبات خاصة بهنّ، كما يقمن بالرحلات العلمية، فلم تكن المرأة سجينات القواعد، كما نجدها أيضاً متمردة على العادات والتقاليد السائدة، حيث تجاوزت التحرّر إلى ما يعرف بالثورة على الأعراف التي تكبّل الحرية الفردية وتكرّس استقلالية المرأة فلا يمكن للمواهب أن تتفجّر من دون الحرية النفسية والاجتماعية، "فكانت بعض النساء من الطبقة الأرستقراطية متحررات إلى حدّ بعيد، فولادة بنت المستكفي، ومهجة القرطبية، نموذجان قليلا الانتشار في الوسط العربي الإسلامي، ولكنهما يعكسان على كل حال سلوك المرأة الأرستقراطية الحرّة إذا ما تيسّر لها إزالة الحجب والظهور على مسرح الأحداث"¹⁷، فنلاحظ أنّ المرأة وصلت إلى درجة عالية من الحرية وبلغت سلطتها شأواً عظيماً بعد تمزيقها حجاب الحشمة والوقار، وهذه أيضاً حفصة الركونية التي تجهر بالحزن بعد مقتل حبيبها، وربما سبب تحرّر المرأة الأندلسية إنّما مردّه تسامح الإسلام مع النساء، وخاصة المعاملة اللينة التي تلقتهن من قبل الحكام، والمكانة التي شهدتها وميزتها عن أخواتها في مختلف العصور.

لقد عاشت المرأة في هذا الوسط عيشة رغد وهناء، "منزل أرستقراطي وأسرة هما على مستوى ثروة الرجل: عدّة زوجات وجمع من الإماء يقتسمن الحجرات الرئيسية لمنزل فسيح يمتلئ في غياب الزوج بآلاف الأصوات، وبمشاجرة النسوة وصراخ الأطفال، ومنزل الخاصة (إن كان مسكنا بورجوازيا أو قصرا منيفا)، تعيش فيه الأسرة منعزلة عن العالم الخارجي، إلا في مناسبات قليلة جدًا يُسمح فيها للنساء بمغادرة المنزل"¹⁸، وعمل في خدمتهن أعدادا كبيرة من الجانب العسكري أو الجانب المدني، وكنّ أشدّ خلق الله اعتناء بما يتعلق بهنّ، فاشتهرن بحب النظافة واهتمامهنّ بالهندام واللباس، وكانت الحرائر يغلب عليهن الحجاب، أمّا الإماء فلا تشديد عليهن فيه.

ولو تحدّثنا عن المرأة المنتمية إلى الطبقة الوسطى، فلا نجد لها تختلف كثيرا عن المرأة الأرستقراطية، "فهي تحاول جاهدة أن ترفع صوتها لتعلي من شأنها، وتثبت وجودها أمام الرجل"¹⁹، فتقلّدها في طريقة عيشها، وتغار منها لعدم توقّر السعادة، الثروة والرفاهية، ونصيها في التعليم كان أقل من الأرستقراطية، حيث تثقف ثقافة خاصة تساعدها فقط على أداء واجباتها.

ويتباين حال المرأة في الطبقة الأرستقراطية والوسطى عن حالها في الطبقة الفقيرة، فقد "كانت المرأة في الأسر الفقيرة سجين البيت، خاضعة لسلطة وتبعية الرجل، ولا يتعدى مجال عملها في الريف العمل في الحقل"²⁰، فكان نشاطها يمتدّ إلى الأعمال التي تستهدف الحصول على قوت الأسرة كطحن القمح والشعير بيدها لصنع الخبز، وساهمت مساهمة فعّالة في الميدان الزراعي، كما كانت تشتغل أيضا بجهد داخل البيت لتدبير شؤونه وتربية الأطفال.

2.4 صورتها ودورها في الحياة السياسية:

كان للمرأة الأندلسية نفوذ سياسي وعسكري كبير أيام الحكم الإسلامي في الأندلس، "فكانت واسعة النفوذ تتمتع بقسط كبير من الحرية ولا تقلّ المرأة الأندلسية عن المشرقية في مدى النفوذ السياسي"²¹، إذ تميّز بالقوة والمال، وتعيش في القصور حياة منعمة مترفة، فساهمت في بعض أمور السلطة إلى جانب زوجها بالرغم من قوّته وعظمته، وتصرفت بملء حريتها في ثروته الخاصة وأملاكه، كما أنها كانت تقود الجيوش وتسيّر

شؤون الدولة للتوسيع من رقعتها، وتأمين حدودها، "ويعود ذلك إلى اتّصافهنّ بالحكمة وعلوّ مكانتهنّ، هذه المكانة لم تستمد قوّتها من مقامهنّ السياسي أو العائلي فحسب، بل استمدّتها من قدرة هؤلاء النسوة وما فسخ لهنّ من مجالات الظهور"²². ويضمّ تاريخ الأندلس جوانب كثيرة أتاحت الفرص لبروز اقتدار النساء ونفوذهنّ.

"ومن أثر حرية المرأة الأندلسية على المجتمع الأندلسي، أنّها كانت صاحبة الصول والقول ذات السلطة والنفوذ، والكلمة المطاعة أمام زوجها، سواء أكان الزوج من عامة الناس أم من الأمراء والملوك"²³، "فكان نفوذ نساء القصر في عهد الحكم المنتصر (360هـ/970م) على رجال الحكومة كبيرا، ومثال ذلك ما كان للأميرة صبيح أو صبيحة البشكنسية* أم الخليفة هشام (406هـ/1015م) من دهاء النساء وأعظمنّ سلطانا ونفوذا"²⁴. رائعة الحسن، شاركت زوجها الحكم، وتمتعت في بلاط قرطبة، وتمكّنت من إظهار ذكائها الفطري وعزمها القويّ، وثقتها بنفسها، فعملت على تدبير شؤون الأندلس وأصبحت معروفة بحسن درايتها لسياسة البلاد، وبعد وفاة الحكم المنتصر" كانت تلك المرأة التي لبّثت ردحا طويلا من الزمن، تسيطر بسحرها ونفوذها، على خلافة قرطبة، وتشترك في تدبير شؤونها، في السلام والحرب، مع أعظم رجالات الأندلس"²⁵، وعينت وصية على ابنها هشام عندما بويع بالخلافة وكان عمره عشر سنوات فزادها ذلك شأنًا. لقد "كان نفوذ الجوّاري كبيرا جدّا لأنّهنّ تدخلن فعليا في الحكم"²⁶، وشهدن منافسة شرسة لأنّهن اكتسحن مجالات الحياة، فنجدهن برزن في الحياة الفكرية والسياسية والفنية واحتلن مكانة عظيمة في المجتمع الأندلسي، فكُنّ مغنيات، مثقفات، زوجات بل وحتى أمّهات لبعض الخلفاء.

والمرأة سواءً أن كانت من الحرائر أو الجوّاري فقد جارت الرجل في حسن تسيير وتدبير الأمور، وحقّقت امتيازًا في ميدان العلم والسياسة والأدب والموسيقى.

وهنا يجرّنا الحديث إلى الجوّاري اللاتي كنّ يعشن في بلاطات الحكام، وهنّ النساء المملوكات من طبقة الرقيق، وقد عُرف الرقّ منذ الأمد في التاريخ العربي وغيره، والجوّاري أقسام وطبقات أبرزها:

1.2.4 جوازي الخدمة:

ويُتخذن لخدمة البيوت والدور والقصور، وهنّ عادة ممّن لسن على درجة كبيرة من الجمال والتعليم والثقافة، وقد يرتقين إلى منزلة الوصيفات في القصور.

2.2.4 جوازي الحانات:

وهنّ اللاتي يوقرن المتعة لطلابها، وقد أثرن في الحياة الاجتماعية في الأندلس، وكان وجودهنّ نتيجة للهو والمجون الذي انغمست فيه البلاد.

3.2.4 جوازي المنادمة والسمر:

وهؤلاء إمّا أن يكنّ في دور خاصة بصاحبها: وتقوم على أن تمتّع الجارية زائريها من طلاب الغناء والسمر والمنادمة، وإمّا إن يكن جوازي منادمة خاصات في القصور: وهنّ اللاتي اشترين لمتعة صاحبهنّ ومنامته في المقام الأول، وجوازي المنادمة كان لهنّ أكبر الأثر في الحياة الاجتماعية والأدبية والثقافية.

كثُرَت الإماء في قصور الخلفاء اللواتي جمعن بين الجمال والدلال، وبين الأدب والفنّ وراح الملوك يتنافسون في اقتناء الموهوبات، فكانت أسعارهنّ باهظة وتزداد ارتفاعاً كلّما تعدّدت صفات الجارية وآنسعت ثقافتها وقيل "أنّ المنذر بن عبد الرحمن الأوسط أهداه أحد التجار جارية بارعة الحسن اسمها طرب، فلمّا رأى جمالها وسمع غناها وأخذت بمجامع قلبه، دفع ثمنها ألف دينار، وكانت لا تساوي أكثر من خمسمائة"²⁷، بينما العمال يشتغلون عدّة أيام ليحصلوا على دينار واحد، حيث كانت المجاعة تنتشر في المجتمع وكانت مئات الدنانير وألوفها تُنفق في أوساط الأمراء لهواً وترفاً، لذلك ولأسباب عديدة فقد العرب المسلمون الأندلس وبكوها كالنساء.

لقد حُظيت النساء الأندلسيات في نهاية عصر الخلافة بحرية واسعة، وأصبحن يختلطن بالرجال، فكُنّ يحضرن الاحتفالات الرسمية في الأعياد وغيرها، "فترتاح نفوس الشعراء لوجودهنّ"²⁸، لا سيّما أنّ الأندلس اشتهرت نساؤها بقدر كبير من الثقافة وأنّسمن بذلكهنّ وفطنتهن فكان الرجال مستعدّين لقبول كل ما يصدر عنهن متأثرين ومطبّقين لأوامرهنّ تحت وطأة الجمال والسحر، فشاعت ظاهرة غزل الملوك وتذلّهم

للحبيبات وتقديرهم لهن إلى درجة المبالغة وهذا دليل على طغيان شخصية الجوّاري ونموّها، فأثّرت المغنيات والراقصات في قلب الحياة الأندلسية حتى سيطرن على قلوب أسيادهن، وفرضن احترامهن وتقديرهن فنازعن الحرائر منازلهنّ السامية وأصبحن يتمتعن داخل القصور وخارجها، ومن تأثّيرهن على الأمراء والخلفاء أنهن بنوا لهن قصورا منيفة ومدن مسماة على أسمائهن، ومن هؤلاء الزهراء التي بنى لها عبد الرحمن قصرا ونقش صورتها على الباب، وأنفق فيه أموالا لا تحصى وسماه باسمها، وأيضا لدينا الرميكية التي غدت رغبتها أوامر، وانتقلت بذكائها وسرعة بديعتها من تنظيف ثياب سيدها على ضفّة النهر إلى سيدة وملكة قلب زوجها المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، ولشدة تعلّقه بها أن يشتق من لقبه اسما لها فسمّاها اعتماد الرميكية وصار عبدا لجمالها، لكننا نجد لها وفية ومخلصة، صابرة ومتشبّثة بزوجها المعتمد عند البلاء فبعد أن خُلع وسُجن، شاطرته الحزن والحرمان والجوع في السجن وأنارت عليه الظلمات فكانت مؤنسة له في وحدته وهما في المنفى.

وفي عصر الطوائف والمرابطين تبوّأت المرأة الأندلسية مكانة عظيمة ممّا يدل على ذلك "كثرة القصائد التي نظمها الشعراء الأندلسيون فيها مدحا وتغزلا، ورثاء. كما ألف الأدباء الأندلسيون عددا من الكتب فيها فكان أشهرها طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم الأندلسي حيث يحلّل فيه طبيعة المرأة، ويبوب عواطف المحبّين تبويبا منظما متماسكا"²⁹.

وقد عُرف هذا العهد بتألّق الحضارة الأندلسية، ومُنحت النساء الأندلسيات في هذه الفترة الحرية المطلقة وكنّ "مختلفات مسلكا وسلوكا وخُلُقاً"³⁰، فمن معالم حريتها شرّعن أبواب دارهنّ وجعلتهنّ صالونا أدبيا لاستقبال الشعراء والأدباء، وهكذا قامت مجالس اللهو، وقلّ الأدب والاحتشام وشاع الانحراف وقلة التحفّظ، فأصبحن يظهرن حرية مدهشة في التعبير عن مشاعر الحب، والتبدّل والخلاعة، وأكثر الأشعار شهرة في هذا المجال هي تلك المنسوبة إلى الأميرة الأموية ولأدة ابنة الخليفة المستكفي.

وحسب ما وصلنا إليه من خلال البحث، أنّ مكانة النساء الأندلسيات ونشاطهنّ متّصل بعلاقتهن بالرجال ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة، فنجد نساء ينتسبن إلى عائلات

الملوك والخلفاء، كنّ خادמות وجواري لهم، فطغت شخصيتهن، بينما هم استصغروا ملكهم دون اعتبار للنفوذ والسلطان أمام عاطفتهم، واعتبروها مصدرا للإلهام فبالغوا في الغزل.

وربما نرجع من أسباب فساد الحكام تسلط النساء في شؤون الدولة وفي هذا الصدد يقول المراكشي: "واستولى النساء على الأموال، وأسندت إليهنّ الأمور، وصارت كلّ امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة، مشتملة على كل مفسد وشير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور"³¹. وقد وصل الأمر بالمرأة في عهد الموحدين إلى أن استأثرت بالحكم والوظائف وشؤون الدولة والعزل.

3.4 صورتها ودورها في الحياة الثقافية:

لم يأفل نجم المرأة الأندلسية حيث ساهمت في رفد العلوم المختلفة، فكان لها دورا بارزا في مختلف النشاطات السياسية والاجتماعية الفنية والأدبية لما كانت تتمتع به من حرية واحترام ومكانة، إذ استطاعت أن تحظى بحظّ كبيرٍ من النشاط العلمي والأدبي، فكانت ثقافتها عميقة ومتنوعة، ولا مبالغة في هذا الوصف، ولقد رأى مصطفى الشكعة: "أنّ إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية في ميدان التعليم والثقافة قد صقل من شخصيتها ووسع آفاق تفكيرها وجعلها تحتلّ مكانة مرموقة في مجتمعها"³²، حيث خرجت بنشاطها إلى الحياة العامة سواء من سيّدات المجتمع الراقى أو بنات الطبقة الفقيرة والجاريات وساهمت في إقامة العمران في مختلف أنحاء الأندلس " كما فعلت جواري عبد الرحمن الناصر، اللواتي حذّون حذو سيدهنّ في العمران، فأنشأن في قرطبة عدّة مساجد، سُمّيت بأسمائهنّ، وقد بنت مؤمرة جارية عبد الرحمن الثاني مقبرة في قرطبة من أموالها الخاصة وضعت اسمها عليها"³³.

تمتعت المرأة في العائلات الموسرة بقسط وفيرٍ من الحرية والنفوذ، ممّا مكّنها من ولوج ونبوغ عدد كبيرٍ منهنّ عالم الفكر والثقافة ومجال الفقه والسياسة والقيام بأدوار اقتصادية واجتماعية هامة، فالنهضة الثقافية التي شهدتها الأندلس تبرّر أنّ المجتمع الأندلسي كان مجتمعا متحضرا ظهر فيه صورة التحرّر والانفتاح سمح للمرأة أن تمارس عددا من الأنشطة المختلفة لدرجة أنهم كانوا يبعثون الفتيات إلى المدارس، ولا فرق في

التعليم بين الرجل والمرأة أو الصبي والصبية، أي أنّ تعليم المرأة كان أمراً مألوفاً في الأندلس، ونالت نصيباً طيباً ووافراً من التعليم فالكثيرات منهن يحفظن عدّة دواوين من شعر العرب، ووصل بعضهنّ درجة الأستاذية في اللغة والآداب، "حتى إنّها كانت تحصل على نفس الإجازات التي يحصل عليها الرجل"³⁴، فكانت المدارس منتشرة في كلّ مكان في الأندلس، لاسيّما مدارس تعليم القرآن، كما أنّ "المرأة بعد هذا كانت تختلف إلى المسجد الجامع بقرطبة وغير المسجد الجامع من مراكز الإشعاع الفكري لتنهل من مناهل المعرفة"³⁵، فلم يقف نشاطهنّ عند حدّ الدراسة في الأندلس بل واصلوا تعليمهنّ حتى خارج البلاد ومثال ذلك: "خديجة بنت أبي محمد عبد الله الشنتجالي التي ذهبت مع أبيها إلى المشرق وحضرت معه نفس الدروس التي حضرها في مكة. وكذلك فاطمة بنت سعد الخير بن محمد التي رافقت والدها أيضا إلى المشرق وحضرت دروس كبار علمائه"³⁶، وأمثالهنّ كثيرات، الأمر الذي ساهم في بزوغ سيّدات من العلم والمعرفة حيث تمكّن من الالتحاق بالركب الحضاري، وهذا دليل على أنّ هناك "نخبة نسوية تمثّل المظهر المعرفي للمرأة الأندلسية المثقّفة"³⁷، ويقول ابن حزم عندما تلقّى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه: "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهنّ ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنّي ربيت في حجوهرنّ، ونشأت بين أيديهنّ ولم أعرف غيرهنّ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب"³⁸، حتى أنّ بعض الأعيان والأمراء يعيّنون معلّّمات لبناتهنّ يعلّمنّ علوم الدين والثقافة الأدبية، فالشاعرتان مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري وحفصة بنت الحاج الركونية كانتا معلّمتين لبنات المنصور سلطان الموحدين، ولقد كان عدد المدارس في قرطبة وحدها سبعة وعشرين.

راجت العلوم بأنواعها في الأندلس، وكان لها عند أهلها حظّ واعتناء فتنافس الملوك في رعاية الأدب والفن، "وكان من عادة ملوك الأندلس أن يعهدوا ببنااتهنّ ونسائهنّ لمعلّمات يتعهدينّ بالتعليم والتّهذيب وقراءة الشعر وحفظه"³⁹، حتى قلّ أن تجد في عهد ملوك الطوائف أمّياً، وحفلت الأندلس بهضة نسائية عارمة وزاحمت الرجال في ميادين الشعر والعلم والفنون، وكانت مساهمة المرأة في الثقافة بارزة في مجالات الأدب من شعر وإنشاء أكثر من غيرها من العلوم، "والشعر عندهم له حظّ عظيم، وللشعرَاء من ملوكهم وجاهة

ورواتب جارية، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويُوَقَّع لهم بالصلوات على أقدارهم⁴⁰.

حققت المرأة وجودها الديني والأدبي في المجتمع الأندلسي، وشاركت في الأحداث الثقافية والفكرية وأصبح لها دور بارز في الازدهار الحضاري فبرزت منهن حاذقات بمختلف العلوم والفنون، ولملت أسماء عديدات في كلِّ مجال من مجالات العلم والأدب فكانت: أستاذة، وفقهية وحافظة للقرآن، وراوية للحديث، وكاتبة، ونسّاجة وخطاطة، وموسيقية وعالمة، وشاعرة وما إلى ذلك، فأحاطت بجميع فروع المعرفة وأتقنتها أيما إتقان، "ويذكر ابن حزم أَنَّ النساءَ هنَّ اللواتي علّمنه القرآن ورَوّينّه كثيراً من الأشعار ودرّبينه في الخط"⁴¹.

ومن المعلّمت فاطمة القرطبية: "بنت عبد الرحمن القرطبي، كانت معلمة ومنحت لأبي القاسم ابن الطلسان، وقرأ عليها برواية ورش وأجازت له خطّها، توفيت عام (613هـ، 1216م)⁴²، "وقد ذُكر أَنَّ ولادة بنت المستكفي أُجيزت بالإفتاء والتدريس"⁴³ ومن النساء الكاتبات اللواتي تولّين منصب الكتابة نذكر منهنّ لبنى كانت "كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن، وقيل أنّها كانت نحوية، وشاعرة وبصيرة بالحساب، وعروضية خطاطة"⁴⁴، أمّا الفقيّهات والحافظات للقرآن، "فكنّ كثيرات في الأندلس، وقد بولغ أحياناً في تعدادهنّ حتى قيل إنّ ستين ألف حافظة كنّ في أنحاء الأندلس، ترفع كلّ واحدة منهنّ قنديلاً فوق باب بيتها في الليل إشارة إلى أنّ هناك حافظة، تميزها لها من غيرها، ولقد ذكر ابن الفَيّاض الذي كتب تاريخ قرطبة في عصر الخلافة الأموية، أنّ سبعين امرأة كرّسن وقتهنّ لنسخ القرآن بحروف كوفية، كنّ في الريف الشرقي لمدينة قرطبة"⁴⁵، كما ذكر المراكشي في المعجب أنه: "كان بقرطبة وحدها مائة و سبعين امرأة يكتبن القرآن بالخط الكوفي"⁴⁶، ومن بينهنّ: عابدة المدنية: أم ولد حبيب بن الوليد المعروف بدحنون^{**}، راوية بالمدينة المنورة عشرة آلاف حديث، من الجوّاري الوافدات من المشرق "سوداء من رقيق المدينة، حالكة اللون"⁴⁷، كانت تروي عن مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة، والمحدثات كان هناك نساء يروين الحديث كـنضار: "بنت محمد بن يوسف الأندلسي، محدثة وأدبية فاضلة، أسمعها الكثير من أصحاب ابن الزبير، وسمعت بقراءة العلم البرازي على بعض الشيوخ، وحضرت على الدمياطي، وحدثت بشيء من مروياته، توفيت في جمادى الآخرة سنة 730هـ / 1329م)⁴⁸،

أمّا الطبييات فلم تغل الأندلس من نساءٍ كانت لهنّ مشاركة في العلوم فتعلّمن الطب والتمريض ونذكر منهنّ: "أمّ الحسن بنت الطنجالي طبيبة ممارسة لمهنتها وسيدة فاضلة وهي بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، من بيت حسب وصالح وعلم، درست الطب على يد أبيها، ونهضت بتعليمه، وكانت تجيد القرآن وتنظيم الشعر"⁴⁹. أمّا الشواعر فقد كانت المرأة الأندلسية مبدعة، ملهمة الأدباء ومحرّكة الأقلام، ولم يزدهر الأدب الأندلسي في عصر من العصور إلا وكان لها حظّ من مجالسه، وما ازدادت خصومات الشعراء حدّة إلا وعادت الأصوات لتخفّ وتتأدّب في حضرة سيّدات المجالس، وهنالك أسماء مشهورة لشاعرات الحقبة الباكّة، وشاعرات القرن الثالث والرابع، الخامس والسادس، وشاعرات غرناطة واشبيلية وشاعرات قرطبة...الخ، ولكل حقبة زمنية خصائص خاصة بها، والشاعرات الأندلسيات تختلفن في أفكارهنّ، فقد امتثلت بعضهن مدرسة العفة والترفع كالشاعرة مريم بنت أبي يعقوب وبثينة وأسماء العامرية وغيرها، وأمّا الأخريات فجئن بأساليب صريحة ومعان جريئة ك: حمدة وولادة وغيرها، فلهذا الأدب صورة حضارية رفيعة تعكس ألوان الحياة الراقية التي عاشها المسلمون إبان ذلك العصر ابتداء من الفتح الإسلامي إلى سقوط المدن الأندلسية، وفي تلك الفردوس المفقود كثرت الشواعر، وعظم شأن التجربة الإبداعية لديهنّ، فكان الإنتاج الأدبي عندهنّ فريداً من نوعه والخوض في معظم الأغراض الشعرية من مدح، هجاء، غزل، ورثاء.

5. خاتمة:

وفي الختام، لا يمكن لهذا البحث المتواضع أن يلمّ بكلّ ما قيل في هذا الموضوع، فمهما اجتهد الإنسان فالكمال لله سبحانه، فالدور الذي أدّته المرأة في الأندلس في جوانب الحياة المختلفة، وفي مجال الإبداع العلمي والأدبي خاصة، قد يمثّل جانباً مشرقاً من تاريخ الحياة العربية هناك.

وتوصلنا في هذا البحث إلى تسجيل نقاط أهمها:

1. حظيت المرأة الأندلسية بمنزلة رفيعة، ومكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي، وذلك على مدار فترات الحكم العربي لبلاد الأندلس، فقد ساهمت في ارتقاء الحياة السياسية والاجتماعية.

2. تمتع المرأة الأندلسية بقسط وافر من الحرية، مكّنها من تكوين شخصيتها وميولها، وفرض وجودها واحترامها، ومجالستها للرجال في مجالس الأنس والطرب، الأمر الذي خولها مشاركة الرجل في مهامه.
3. ظهور طبقة الجوّاري وتأثيرهن في مجالات الحياة المختلفة، وبسط نفوذهنّ ونشر عاداتهنّ داخل المجتمع الأندلسي.
4. تصدّي الحرائر لغزو الجوّاري وذلك بمجاهتهنّ وفرض وجودهنّ، وإبراز قدرتهنّ على مواكبة الانفتاح الذي كان يشهده العصر الأندلسي.
5. إنّ المستوى الثقافي والعلمي الذي حصّلته المرأة الأندلسية مكّنها من منافسة كبار الأدباء والشعراء، وذلك من خلال مشاركتها الفعّالة في المجالس الأدبية.
6. إسهام المرأة الأندلسية في مجال الأدب، وظهور حافظات للقرآن الكريم أو معلمات تعلّم النساء أو طبيبات أو كاتبات، وقد تكون جارية أو تكون حرة من عامة الناس أو ابنة ملك أو زوجة خليفة وهذا يدل على اتساع معرفتهن بالعلوم والفنون.

التمهيش:

- ¹ - القرآن الكريم، رواية ورش، سورة النساء، الآية 1.
- ² _ عثمان العبادلة، دراسات في الأدب الأندلسي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1995م، ص 11.
- ³ _ سعد بوفلاقة، الشعر النسوي الأندلسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون - الجزائر، د ط 1995م، ص 26، 27.
- ⁴ - عبد المجيد عابدين، دراسة تحليلية نقدية لنماذج من الشعر الأندلسي، دار الكتب، بيروت، ص 104.
- ⁵ _ محمد صبحي أبو حسين، صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2 منقحة، 2005م، ص 26.
- ⁶ _ سعد بوفلاقة، الشعر النسوي الأندلسي، ص 26، 27.
- ⁷ - عبد الله العفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج 3، مكتبة الثقافة المدينة المنورة، المملكة العربية الإسلامية، ط1، 1930م، ص 128.
- ⁸ - عبد الحميد فايد، المرأة وأثارها في الحياة العربية، جامعة بيروت، د ط، 1977م، ص 49.
- ⁹ _ سلمى الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م، ص

- ¹⁰ _ لسان الدين الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ت: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م، ص139.
- ¹¹ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية – امرأة حضارة شعت لحظة وتشظّت -، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، ط1، 2019م، ص31.
- ¹² _ دلال عباس، المرأة الأندلسية، ص32.
- ¹³ _ محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، الراية للنشر والتوزيع، ط3، 2008م، ص55.
- ¹⁴ _ ديوان ابن زيدون، تحقيق: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص13، 14.
- ¹⁵ _ مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، دط، 1975م، ص118.
- ¹⁶ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 1435هـ - 2014م، ص71.
- ¹⁷ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص72.
- ¹⁸ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية – امرأة حضارة شعت لحظة وتشظّت -، ص28.
- ¹⁹ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص72.
- ²⁰ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص73.
- ²¹ _ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011م، ص23.
- ²² _ محمد جميل بهيم، المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة، دار النشر للجامعيين، بيروت، ط1، 1962م، ص261.
- ²³ _ محمد صبحي أبو حسين، صورة المرأة في الأدب الأندلسي، ص41.
- * - هي صبيحة ملكة قرطبة زوجة الخليفة الحكم وأُم الخليفة هشام، من ربّات النفوذ والسلطان والإدارة والسياسة، وظهرت صبح في أوائل عهد الحكم المنتصر، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال.
- ²⁴ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص75.
- ²⁵ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص77.
- ²⁶ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص82.
- ²⁷ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية، ص47، 48.
- ²⁸ _ محمد جميل بهيم، المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة، ص234.
- ²⁹ _ محمد صبحي، صورة المرأة في الأدب الأندلسي، ص30.
- ³⁰ _ سهى بعيون، إسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص84.
- ³¹ _ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العريان، طبعة القاهرة، 1963م، ص154.
- ³² _ مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار النهضة العلمية، بيروت، دط، 1972م، ص44.

- ³³ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية - امرأة حضارة شعت لحظة وتشظّت -، ص 61.
- ³⁴ _ سعد بوفلاقة، الشعر النسوي الأندلسي، مرجع سابق، ص 27.
- ³⁵ _ محمد المنتصر الرسوني، الشعر النسوي في الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د ط، 1978 م، ص 30.
- ³⁶ _ سعد بوفلاقة، الشعر النسوي الأندلسي، ص 27.
- ³⁷ _ محمد المنتصر الرسوني، الشعر النسوي في الأندلس، ص 19.
- ³⁸ _ محمد مصطفى أبو شوارب، أبحاث مؤتمر التراث الأندلسي، الشخصية والأثر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، د ت، د ط، ص 157.
- ³⁹ _ مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 147، 148.
- ⁴⁰ _ سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان - الأردن، ط 1، 2012 م، ص 40.
- ⁴¹ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية، ص 96.
- ⁴² _ ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، ج 1، تح: عبد السلام الهواس، دار المعرفة، المغرب، ص 123.
- ⁴³ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية، ص 96.
- ⁴⁴ _ سعد بوفلاقة، الشعر النسوي الأندلسي، ص 16.
- ⁴⁵ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية، ص 99.
- ⁴⁶ _ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، ص 372.
- ^{**} - هو حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أبو سليمان، كان بالأندلس في سلطان عبد الرحمن الداخل.
- ⁴⁷ _ دلال عباس، المرأة الأندلسية، ص 100.
- ⁴⁸ _ نبيلة عبد الشكور، شهيرات الأندلس، كنوز الحكمة، بن عكنون - الجزائر، 1437 هـ، د ط، 2016 م، ص 34.
- ⁴⁹ _ نبيلة عبد الشكور، شهيرات الأندلس، ص 21.